مفردات عاشورائية تحت المجهر

ونحن في شهر الحسين, شهر محرم الحرام, أحببتُ أن أتحدث عن بعض من المفردات العاشورائية, وقد سبق الحديث عن كثير من هذه الموضوعات في سنواتٍ مضت عبر وسائل التواصل وغيرها.

المفردة الأولى: وجود رقية بنت الحسين بين الحقيقة والخيال

إنها شخصية معروفة مشهورة فاقت في شهرتها الكثير من المُسَلّمات والحقائق العاشورائية, إنها شخصية وقصة ومشهد السيدة رقية بنت الحسين في الشام.

عندما تحدثتُ مع البعض حول هذه القضية استغرب واستبعد وكأنني شككت في مسلمة من مسلّمات المذهب الإمامي أو في ركيزة من ركائزه, وذهب يبحث ويبحث بين صفحات كتب التاريخ والتراجم والأنساب عن دليل مقنع, لعله يغلق هذا الباب ويُخرس هذا الشك.

فمن خلال سبر الباحث وغوصه في التاريخ بكتبه ومجلداته وموضوعاته سيرى أن أول مصدر ذكر قصة رقية بنت الحسين في خربة الشام ووفاتها هو كتاب فارسي اسمه كامل بهائي أو كامل السقيفة لعماد الدين الطبري. من أهل القرن السابع الهجري عن كتابٍ مجهول اسمه الحاوية. وكتاب كامل البهائي حوى الغث والسمين والمتناقضات والأخطاء التاريخية. وحتى محققه ومعربه وهو السيد محمد شعاع فاخر –والسيد فاخر من أشهر المعربين للكتب الفارسية المعروفة - فرغم حماسه للكتاب. إلا أنه كان يبدي تعجبه وتذمره وعدم إنقضاء عجبه من هذا الكاتب في ثنايا مروره على متن الكتاب وفي مواضع عديدة منه.

وكامل البهائي ذكر القصة مختصرة جداً وبسيطة والطفلة فيه مجهولة الاسم. ثم زِيد فيها بعده على مدى ستة قرون وتحول اسمها متنقلاً بين عدة أسماء وترجيحات حتى استقر قبل حوالي أقل من مئة وخمسين عاماً على اسم (رقية).

وقد زاد في القصة كمال الدين الكاشفي ت 910هـ في كتابه (روضة الشهداء), ثم زادت تفاصيلها مع كتاب (المنتخب) لفخر الدين الطريحي ت 1085هـ, حتى جاء صاحب كتاب (أنوار المجالس) وهو كتاب

فارسي لمحمد الأرجستاني من أواخر القرن الثالث عشر الهجري وسمّاها (زبيدة) لا رقية.

الغريب أن صاحب أنوار المجالس ذكر رقية بدون أن يذكر مصيرها ولكن جعل صاحبة الرأس في الطشت والتي توفيت على رأس أبيها هي زبيدة.

ثم جاء محمد جواد الخراساني من أوائل القرن الرابع عشر الهجري صاحب (شعشعة الحسيني) بالفارسية وشكك متردداً في اسمها بين زبيدة ورقية وزينب وسكينة.

وأخيرا جاء الواعظ محمد علي شاه عبدالعظيمي صاحب كتاب (الإيقاد) المتوفى ١٣٣٤هـ ليقول: قيل كانت تسمى رقية, ذاكراً اسمها بصيغة تشكيكية, تحولت بعده إلى حقيقة لا شك فيها.

ونرى أنها كلها مصادر متأخرة ومعاصرة لا تنهض لإثبات شخصية تاريخية, ولا تذكر عمن تنقل منه هذه الزيادات.

أما مشهدها بالشام فإنما هو في الأصل مسجد رأس الحسين, وهو مسجد معروف في كتب التاريخ وكتب الرحالة الذي جابوا البلدان بهذا الاسم لكل من زاره ووقف عليه, أي هو المكان الذي نُصب فيه الرأس, وليس ضريحاً لطفلة من أطفال الحسين.

وهذا المسجد القديم دفنوا فيه رأس الملك الكامل الأيوبي عندما قتله هولاكو عام ٦٥٨هـ وقطع رأسه فدفنوه في مسجد الرأس ليكون قرب موضع رأس الحسين ويتشرف بجواره, هذا قبل أن يتهدم المسجد فيما بعد ويتحول إلى مشهد منسوب لطفلة الحسين لا رأسه.

بعدها فجأة وبطريقة غامضة لا نعرف تفاصيلها وأسبابها تحول المسجد قبل حوالي خمس مئة سنة (في القرن العاشر الهجري) إلى مشهد لطفلة من أطفال الحسين اسمها في ذلك الحين ملكة بنت الحسين, ثم تغير مشهد ملكة إلى مشهد رقية بنت الحسين, حيث ذكر المشهد صاحب منتخب التواريخ الشيخ محمد هاشم الخراساني المتوفى1352هـ بهذا الوصف وثبت الأمر إلى يومنا هذا, ولم يكن الشيعة يزورون هذا المشهد ولا يعرفونه, ولكن الموضع مشهور في الشام كما أسلفنا مسجداً للرأس.

البعض ومن أجل إثبات وجود رقية اعتمد على عبارات نداء الحسين يوم عاشوراء: يا اختاه, يا أم كلثوم, وأنتِ يا زينب, وأنتِ يا رقية. ولكن ليس بهذه الطريقة المتكلفة نُثبت وجود شخصية لها كل

هذا الحضور والاحتفاء في ذكرى عاشوراء الحسين حين تعوزنا الأدلة, فضلاً عن أن رقية بنت أمير المؤمنين وزوجة مسلم بن عقيل كانت مع الركب الحسيني وهي أولى بكون النداء موجهاً إليها ضمن أخواتها إذا ثبت نص النداء وفي الأمر تفصيل.

أيضاً البعض اعتمد على ماذكره ابن فندق من كون الامام لديه أربع بنات,ذكرهن وهن فاطمة وسكينة وزينب وأم كلثوم, ثم ذكر من أسماءهن ثلاث بنات بقين بعده, وهن فاطمة وسكينة ورقية, ولكن نص ابن فندق مضطرب ومتناقض, ولا نملك من الأدلة ما يثبت أنه يقصد بأم كلثوم يعني رقية, فتحوير اسم أم كلثوم إلى رقية فيه من التكلف مافيه.

في النهاية لا أنفي وجودها قطعاً وجزماً, ولكن الأدلة على ذلك ضعيفة ومتضاربة, ويبقى الأمر معلقاً أو مفتوحاً للبحث.

النقطة الثانية: مسلم بن عقيل ملحمة فرد

قصة حركة مسلم بن عقيل من لحظة خروجه من المدينة بعد تكليف أبي عبدا له, ووصفه له بالثقة من أهل بيته, وحتى مصرعه الأليم في الكوفة, مرمياً من قصر الإمارة بعد قطع خصمه لرأسه, تعتبر من أعظم مآسي الطف التي حدثت قبل يوم عاشوراء, ومن أشدها تأثيرا على القلب, وأعظمها إدخالا للحزن عليه, وإيلاما له.

ومأساة مسلم الوحيد الغريب المغدور به من أهل الكوفة, تشكّل ملحمة تراجيدية صنعها فرد واحد في مجتمع وعده ومَنّاه ثم خذله وتخاذل عنه, ثم أسلمه.

متاعب وآلام بعد الآمال عاشها مسلم يصعب تصورها ويعظم تخيلها, وعزيمة راسخة كالجبال مع استمرار على الخط الذي بدأ عليه, كان وفياً للرسالة التي حَمّلَه الحسين إياها حتى آخر لحظة من حياته ما بقي فيه قلب ينبض.

تعارضت قيمه ومبادئه مع فرصة سنحت له ليفتك بخصمه, ويقضي عليه لكنه أبى أن يحيد عما دافع ونافح وخرج من أجله.

والملفت للنظر أن ملحمة مسلم بن عقيل كما نسمعها اليوم على ألسنة الخطباء (في ليلة الرابع

من محرم وفي المآتم النسائية وبعض مناطق العراق في الليلة الخامسة من محرم) هي القصة التي سلمت من التحريف والتغيير والتضخيم من بين قصص واقعة الطف المنبرية, حيث نسمعها كأننا نعيش أحداثها مع بطل الكوفة الواقف أمام طواغيت عصره وأذنابهم يقاتل وحيداً فريداً عن مبادئ الاسلام, وفي طاعة إمام زمانه, وما كان يبكي على نفسه كما وصف بل لأهله القادمين, بل الحسين وآل الحسين وما يحملون من قيم بكى, وهو يرى الخيانة والخذلان, وهو يرى مشروع الإصلاح في الأرض يكاد يُجهض.

في ملحمة مسلم نستمع لسيرة تاريخية كما وقعت في نهايات عام ٦٠ للهجرة, ما عدا قصة الحفيرة التي قيل بأنهم حفروها لمسلم, حيث أول من ذكرها هو فخر الدين الطريحي في منتخبه من أهل القرن الحادي عشر الهجري بدون مصدر, ثم نُقلت في مقتل أبي مخنف الموضوع المنحول, ثم نقلها القندوزي الحنفي في كتابه (ينابيع المودة) وكلها مصادر غير معتبرة, فالقصة غير ثابتة.

والصحيح أن الأعداء استطاعوا القبض على مسلم ليس من خلال حفيرة حفروها له, بل من خلال وعده بالأمان من قبل ابن الأشعث رسول ابن زياد, ومسلم قد غلبته الجراحات وأتعبه الإرهاق فلم يقبل منهم, وقال: تأسروني وبي طاقة, فحمل عليهم وحملوا عليه, فطعنه رجل من خلفه, فسقط إلى الأرض فأسروه وذهبوا به لابن زياد, كما روت ذلك مصادر التاريخ المتقدمة الموثوقة.

وهناك من لحظة دخوله للقصر وحتى استشهاده حدث مالا يحتمله قلب إنسان من خساسة صدرت من تلك النفوس ضد نفس أبيّة كريمة, حيث تبخرت كل الوعود ونُسي الأمان الذي أعطوه إياه وغدروا به في موقف يقشعر له جلد الانسان السوي, وفاجعة مسلم لم تنتهي بتلك القتلة الفظيعة بل جرى بعد ذلك على جثمانه وجثمان هاني -حيث قُتل هاني في سوق الغنم- من التمثيل والتنكيل في سوق الكوفة ما ينفطر له القلب ويحترق له الفؤاد.

فسلام من الله عليك يا سفير الحسين وثقته يوم وُلدت ويوم قتلوك شهيداً غريباً عطشاناً ويوم تُبعث حياً لتشهد على القوم .

النقطة الثالثة: سؤال وجواب

وردني من أحد الأخوة سؤال يقول: هل صحيح أن السيدة زينب وضعت يديها تحت الجسد المقدس للمولى الحسين بعد استشهاده, وأنهضته قليلاً عن الأرض, ثم خاطبت السماء قائلة: اللهم تقبل منا هذا القربان؟

فقلتُ في الجواب: هذه العبارة المشهورة المنقولة على لسان السيدة زينب عليها السلام التي تكاد شهرتها تطبّق آفاق المآتم الحسينية, لم تَرِد في أي مصدر تاريخي لا بطريقٍ صحيح ولا ضعيف, ولا في أي كتاب من الكتب التي أرّخت لواقعة الطف ولا في كتب المقاتل.

وإنما هي مما نقله الخطباء في عصرنا عن كتاب فارسي لمؤلف معاصر اسمه محمد باقر البيرجندي المتوفى عام ١٣٥٢هـ في كتابه (الكبريت الأحمر), وبدوره البيرجندي نقل الخبر عن معاصر مثله وهو عباس قلي خان المستوفي الذي توفي عام ١٣٤٢هـ في كتاب فارسي له اسمه (الطراز المذهب في أحوال زينب), وكلا الكتابين تضمّنا أخباراً لا أصل لها وتفرّدا بما لا مصدر له, وحويا الأخبار المنحولة, لذلك حذّر بعض المحققين من أخبار هذه الكتب والاعتماد عليها.

والوارد في الكتب المعتبرة- كتاريخ الطبري ومقتل الحسين للخوارزمي والملهوف لابن طاووس ومثير الأحزان لابن نما الحلي- أن السيدة زينب لما مرّت بالجسد الشريف للامام قالت: يامحمداه, يامحمداه, صلّى عليك ملائكة السماء, هذا الحسين بالعراء, مرمّل بالدماء, مقطّع الأعضاء, يامحمداه, وبناتك سبايا, وذريتك مقتّلة, تسفي عليها الصبا. قال الراوي: فأبكت واللهِ كل عدو وصديق.